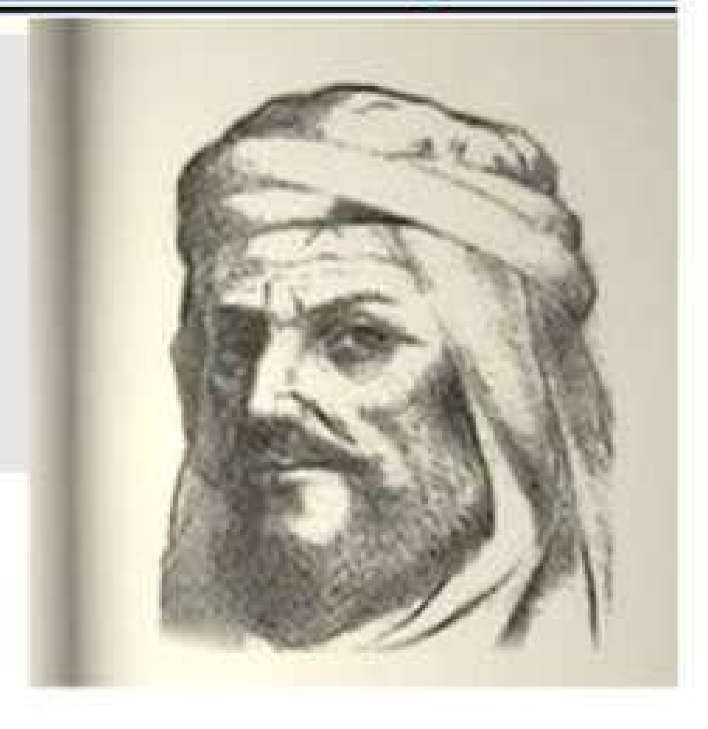


في بَــلاط المُتنـــبــي

(الحلقة الثامنة)



بقلم الأستاذ: محمد ولد إمام

انظر معي إلى هذه الأبيات من إحدى قصائد المتنبي المشهورة:

أطاعنُ خيلاً منْ فوارسِها الدهْرُ
وحيداً، وما قولي كذا؛ ومعي الصّبرْ

ويكفيك الشطر الأول حين تتمعن فيه، لتعلّ رهذا الرجل في حقده على أهل عصره، فهو يُطاعن خيلا الدهرُ كلّه بعضُ فوارسها!
ثم يواصل وصف أخلاقه وشجاعته واقتحامه:

وأشجعُ مني كلّ يوم سلامتي
وما ثبتتْ إلاّ وفي نفسها أمْرُ

تمرّستُ بالآفاتِ حتى تركتُها
تقولُ أماتَ الموتُ أم ذُعرَ الذُّعرُ؟

وأقدمتُ إقدامَ الأتيّ كأنّ لي
سوى مُهجتي أو كان لي عندها وِتْرُ

ذرِ النفسَ تأخذْ وُسعها قبلَ بينِها
فمُفترقٌ جارانِ دارُهما العُمْرُ

فالعمر قصير والحياة زائلة فخذ بحظك منها ما دمت قادرا ولا تبال بشيء.

ولا تحسبنّ المجدَ زقّاً وقينةً
فما المجدُ إلاّ السّيفُ والفتكةُ البكرُ

وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وأن تُرى
لكَ الهبواتُ السّودُ والعسكرُ المَجْرُ

وأذكر أني قرأت مرة لبعضهم أنه لو كان غير المتنبي قائل هذا البيت لقال وتضريب أعناق الرجال.. ولكن المتنبي لا يرى كفئا له إلا الملوك، والغريب عندي أن يُنشد هذا أمام أمير أو ملك؛ فانظر شجاعة الرجل وضيقه بأهل دهره الذين بخسوه حقه وتآمروا عليه، ويتمادى في ذلك في الأبيات التي بعد هذا فيقول:

إذا الفضلُ لم يرفعكَ عن شكرِ ناقصٍ
على هِبةٍ فالفضلُ فيمنْ له الشكرُ

ومنْ يُنفقِ الساعاتِ في جمعِ مالِهِ
مخافةَ فقرٍ فالذي فعلَ الفقرُ

وكم من جبالٍ جُبتُ تشهدُ أنني الـ
ـجبالُ وبحْرٍ شاهدٍ أنني البحْرُ

وجَنّبني قُربَ السلاطينِ مقتُها
وما يقتضيني من جماجمِها النّسْرُ

وإني رأيتُ الضُرّ أحسنَ منظراً
وأهونَ منْ مرأى صغيرٍ به كِبْرُ

فهو يمقت قرب هؤلاء الملوك، وكبرهم بغير حق فهو يرى نفسه مثلهم بل أرفع قدرا، مثل قوله: وفؤادي من الملك وإن كا ن لساني يُرى من الشعراء!

وسنقف قليلا عند أبيات من لاميته المنسرحية الشهيرة، ففيها يتناول قضية النسب فيقول:

أنا ابنُ منْ بعضُهُ يفوقُ أبا الـ
ـباحث والنّجلُ بعضُ من نجلهْ

وإنما يذكرُ الجدودَ لهمْ
منْ نفّروهُ وأنفدوا حيلهْ

أي أن من يفاخر بالجدود هو فقط من عجز ونفدت حيله فلم يبق له إلا الفخر بالغابرين واستدعاء الماضي وأهله، لأن حاضره لا يسعفه؛ وأرى أن هذين البيتين يصلحان لحالنا المعاصر فعالمنا العربي العاجز والمتأخر علميا وتقنيا غارق في الماضي وأمجاده الغابرة، لأن حاضره بائس لا مجد فيه، فترى أغلبنا يستدعي عصور النهضة الإسلامية وما كان فيها من تقدم أيام عصورها الذهبية، وما ذلك إلا لأن الحاضر لا مجد فيه.

ونرجع إلى أبي الطيب مع هذه الأبيات الرائعة:

فخراً لعضبٍ أروحُ مشتملهْ
وسمْهريّ أروحُ معتقلهْ

وليفخرِ الفخرُ إذ غدوتُ به
مُرتدياً خيرَهُ ومُنتعلهْ

أنا الذي بيّنَ الإلهُ به الـ
أقدارَ والمرءُ حيثُما جعلهْ

فهو هنا يعتبر نفسه مقياسا يُبين الله به أقدار الناس، ومنازلهم، فمن كان كريما عظيم القدر بان ذلك في تعامله مع أبي الطيب وبان أيضا في شعره. فهو:

جوهرةٌ تفرحُ الشرافُ بها
وغصّةٌ لا تُسيغُها السّفلهْ

إنّ الكذابَ الذي أكادُ به
أهونُ عندي من الذي نقلهْ

فالكذب والنميمة أحقر عند المتنبي ممن يمشي بهما؛

فلا مُبالٍ ولا مُداجٍ ولا
وانٍ ولا عاجزٌ ولا تُكَلَهْ

ودارعٍ سفتُهُ فخرّ لقى
في المُلتقى والعَجاجِ والعَجَلهْ

وسامعٍ رُعتُهُ بقافيةٍ
يحارُ فيها المنقّحُ القُولهْ

وربّما أشهدُ الطعامَ معي
منْ لا يُساوي الخبزَ الذي أكلهْ

ويُظهرُ الجهلَ بي وأعرفُهُ
والدُّرُّ دُرٌّ برغمِ منْ جهلهْ

وقد والله صدق، فهل ضر شعر المتنبي جهل بعض أهل دهره به؟ وها نحن نتدارسه بعد أكثر من ألف سنة!

ثم اقرأ معي هذه الأبيات من قصيدة له:

يهونُ على مثلي إذا رامَ حاجةً
وقوعُ العوالي دونَها والقواضبِ

كثيرُ حياةِ المرءِ مثلُ قليلِها
يزولُ وباقي عيشهِ مثلُ ذاهبِ

ثلاثية الأبعــــــاد



• سيدي محمد متالي

محاربة الشائعة

لم تكن وسائل الاتصال متاحة في منتصف سبعينات القرن الماضي ونحن يومها ندرس في المستوى الإعدادي... فقد تكون عند بعض مديري الثانويات هواتف ثابتة لكنها لا تخرج عن الشبكة الداخلية للمدينة... فلم يكن باستطاعة المدير في الداخل الاتصال بالوزارة... إلا أن حركة البريد كانت نشطة... وكنا نتلقى الرسائل من موزع البريد مرتين في الأسبوع... وكان يكفينا أن نكتب على ظرف الرسالة عبارة F.S وهي اختصار للعبارة الفرنسية (الأسرة المدرسية)... فكانت هذه العبارة تكفي من الطابع البريدي الذي كان هو الآخر جد رخيص...

اجتمع بنا الكبار في ساحة المطعم عند الصباح ونحن نخرج من المساكن الداخلية لنتناول وجبة الفطور... القهوة بالحليب والخبز مع الشكولاتة أو الزبدة الفرنسية أو الكونفيتير...

كانت وجبة راقية في تلك الفترة... ومنا من يأخذ الحليب فقط دون القهوة.. فكل ذلك متاح على طاولات المطعم التي يتقاسمها في العادة ثمانية تلاميذ يرأس أحدهم جماعته... وعادة ما يكون الأسن من بينهم...

قبل أن ندخل إلى المطاعم التي تعد عند الصباح الباكر اجتمع بنا قادة القسم الداخلي من التلاميذ وقالوا إنه في مدينة العيون، التي تبعد عنا أكثر من ثمانمائة كيلومتر إلى الشرق.. أنه قد قتل تلميذ في مناوشات بين الشرطة والتلاميذ من المؤسسة في إطار مظاهرات نظمها التيار الناصري الذي كانت مدينة العيون معقلا من معاقله...

التعليمات بشأن ردود الفعل تملى على الطريقة العسكرية...

القرار الأول هو إضراب عن الفصول لمدة ثلاثة أيام...

الآلية تتمثل في الخروج من المطاعم مباشرة إلى ملعب كرة القدم و التجمهر هنالك لاعتراض تلاميذ القسم الخارجي الذين يصلون ابتداء من الساعة السابعة والنصف على متن حافلات ثلاث تحملهم من وإلى المدينة عبر أربع رحلات يومية أيام الدراسة...

ومن الآليات كذلك منع التلاميذ (ذوي الآباء) من الدخول إلى المؤسسة بأي طريقة كانت...

وعادة ما يصل هؤلاء، على قلتهم، في سيارات شخصية لا يتجاوز أصحابها عدد أصابع اليد الواحدة...

بعد عشرين دقيقة كانت ساحة المؤسسة خالية من التلاميذ.. وكان الأساتذة الذين دخلوا للتو من الحي المجاور للمؤسسة أومن المدينة يتجمهرون أمام الباب الخلفي لمكتب المدير.. كأنما يبحثون عن الحماية من صولة ما يزيد على ألف مراهق غاضبين ومتحمسين...

بعض الآباء لم ينزل أبناءه من السيارة خوفا عليهم من صدام محتمل بين التلاميذ والشرطة.. التي أخذ المدير يستدعي السلطات المحلية من أجل إرسالها لضبط النظام والحفاظ على الأمن العام.. مرت الدقائق قصيرة بالنسبة لمن تعودوا الكسل وضجروا من قاعات الدرس.. ولكنها كانت طويلة على هيئة التأطير التي تسعى إلى أي وسيلة تكسر بها هذا التحرك...

حالة استنفار قصوى يقوم بها الجهازان الإداري والتربوي في المدينة الذي اتصل على أعلى الهرم ليتأكد من أن الشائعة لا أساس لها من الصحة... فالدروس في ثانوية العيون تسير بصفة نظامية في الوقت الذي نحرص نحن على الاستمرار ونبايع قادتنا على المضي قدما في مواصلة ردة الفعل على هذه الحادثة التي لم نكلف أنفسنا عناء البحث عن مصدرها..

يتواصل...